مقدمة الكتاب

بسم الله، والحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِ الله.

وبعـــد.

فَإنَّ الإنسانيةَ - من بَدْءِ أَمْرِهَا إلى نهايتِه - تحتاجُ إلى مَن يهـــديها للَّـــتي هـــي أقْوَم،ويُبَصِّرها سبيلَ الرَّشاد.

الإنسانيةُ بحاجةٍ إلى مَن يُطهِّرها من دَنَسِ الأهواء والشهوات.

بحاجةٍ إلى مَن يُبصِّرها بالعواقب، وهي تريدُ العُلُوَ في الأرض وتطلبُ التكاثر.

بحاجةٍ إلى مَن يُعلِّمها أنَّ قيمةَ الإنسانِ في صفاتِه، وشَرَفَهُ في أخلاقه، وكَرَامتَهُ في صِدْقِ إيمانه.. لا في زينته ومتاعه.

والناسُ لو تُرِكُوا لأنفسهم - دُون هُداةٍ من الله يُرشدونهم - لأَفســـدوا وهـــم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنُون صُنْعاً.

لهذا، كان من حكمة الله البالغة، ورحمته الواسعة أنْ لازمتْ هدايتُه الإنسانَ منذ بدايته، فلم يهبط إلى الأرض دونَ هُدىً أو تبصرةً، بل توالَتْ عليه الرُّسُلُ وتتابَعَـــتْ، إلى أنْ خُتِمَتْ الرِّسالاتُ بمَنْ أرسله اللهُ تعالى رحمةً للعالمين.

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[1]

(١) النساء : ١٦٥.

واكتملت مِنَّةُ الله على البشرية بإنزال القرآن الكريم على محمد خاتمِ النبيِّين ﷺ؛ ليكون للعالمين نذيراً ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ (١)

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز،فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (٢)

وبحفْظِ هذا الكتابِ استبانَ منهجُ الأنبياء، وحُفِظَتْ رسالاتُهم في كتابٍ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلفِه؛ لتبقى هذه الرسالاتُ آيةً للعالمين، يَعْتَبِرُ بها مَن يَعْتَبِرُ، ويتذكَّرُ بها من يتذكَّرُ، ولِيَعلم الناسُ جميعاً أنَّ الحقَّ الذي جاء من عند الله، وأُمِرَوا به – هو سبيلُ النَّجاةِ، ولا نجاةَ بغيره.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠ ﴾ (٣)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١ ﴾ (٤)

وقد دعانا الكتابُ العزيزُ إلى الإيمانِ برُسُلِ الله جميعاً بلا تفرقةٍ بين رسولٍ

(١) الفرقان : ١.
(٢) الحجر : ٩.
(٣) هود : ١٢٠.
(٤) يوسف : ١١١.

ورســـول ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (١)

وأخبرنا أن ذلكَ هو السَّبيلُ لمرضاة الله والفوزِ برحمتـــه ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

* * *

والرسلُ الكرامُ دُعَاةُ حَقٍّ وعَدْلٍ، وهُداةٌ إلى صـــراط مســـتقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ (٣)

وحديثُ القرآنِ عنهم دعوةٌ إلى الإيمانِ بهم، والسَّيْرِ على نَهجهـــم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (٤)

وللناس في حياتهم قُدوةٌ وأُسوةٌ، وهم يُبلِّغُونَ ما أُنزلَ إليهم من ربِّهم، ويُحســـنونَ التوكلَ عليه، فلا تَستخفّهم زينةُ حياة، ولا يصرفهم عن الثبات على الحقِّ أذى الســـفهاء من أقوامهم، فهم أشدُّ الناسِ بلاءً، وأتْقَى الناسِ وأخشاهم.

ولا شَكَّ أنَّ منهج الأنبياء في الدَّعوة إلى الله سِيَاجُ أَمْنٍ لدُنيا الناسِ وأُخـــراهم، في يُسْرٍ وبلا تكاليف؛ فَلَنْ تُصَانَ حُقوقُ الناسِ بغير الحقِّ الذي جاء به الرُّسُل، ولَـــنْ

(١) البقرة : ١٣٦.
(٢) النساء : ١٥٢.
(٣) الشورى : من الآية ٥٣.
(٤) الأنعام : من الآية ٩٠.

يتحقَّقَ لهم أَمْنٌ أو سَلامٌ إلا بالتسليمِ له والرِّضَى به.

وحياةُ الأنبيـــاء تكشفُ لنـــا أن الأصـــلَ الذي قامت عليه دعوتهم جميعاً هو « الإيمان بالله، واليوم الآخر » وذاك هو السبيلُ لاستقامة النفوس، ومِن ثَمَّ اســـتقامة الحياة وأَمْنِها؛ فالإيمان بالله وحده هو الأصل الأوَّل الذي تقومُ عليه الـــدَّعْوَة، ومنـــه تستمدُّ مقوِّماتِ حياتِها وامتدادِها وثباتِها، وعليه تستندُ أخلاقها.

ولهذا لم نَرَ نبيًّا من الأنبياء دعا قومَه إلى الإصلاح دون تقريرٍ لهذا الأصلِ.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وأما الإيمان باليوم الآخر فهو الأصل الثاني الذي تنصلحُ به النفوس؛ فلا ســـبيل لصلاحها بغير إيمانها بالعَوْد إلى الله والحساب بين يديه.

إنَّ مَن أيقنَ بذلك حاسبَ نَفْسَهُ، ووقَاهَا سُوءَ العاقبة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

وشتَّان ما بين إنسانٍ لا يُبالي بالعواقبِ، وبين مَنْ يحذرُ الآخرةَ ويرجـــو رحمـــةَ ربِّـــه،فمَن يحـــذَرُ الآخـــرةَ يَكُفَّ شرَّه عن غيره، ويُقدِّمُ له خيرَه، دون مَـــنٍّ أو أذى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣)

إنَّ منهجَ الأنبياءِ – في الدَّعْوَة إلى الله – مُوجَّهٌ لتربيةِ الإنسانِ، وهدايتِه للتي هي

(١) الأنبياء : ٢٥.

(٢) الإسراء : ١٩.

(٣) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

أقومُ، على بصيرةٍ ومعرفة، وحكمةٍ ورُشد.. إنَّه مِنَ الله، والله أعلمُ بما يُصلِحُ عبادَه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

والناس - وهم يتَّبعون منهجَ الأنبياء - يستطيعون أن يُواجهوا أعراضَ الحياة بالثابت من إيمانهم وأخلاقهم، فلا تتحكَّمُ فيهم أعراضُ الحياة، بل يحكُمونها، ولا تتبدَّلُ فيهم القِيَمُ والأخلاقُ، بل يستمسكون بها، ويموتون عليها؛ فإن مَنْ فَقَدَ تقوى الله مع كل عارض يعرِضُ له - من عُسر ويُسر، وشدَّة ورخاء - يُدمِّرُ نفسَه، ويُفسدُ يومَه، ويَخْسَرُ غَدَهُ، ومَنْ استمسك بالتقوى لم تُطغه النَّعْماءُ، ولم تُنسه الضَّرَّاءُ.. بل يظفرُ بالخير في جميع الأحوال « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٢)

والإنسانيةُ وهي تستجيبُ لدعوة المرسلين تَسْلَمُ من الفُرْقة الضَّالة، والأنانيةِ الجشعة، وتنأى بنفسها عن الظلم والفساد.

الإنسانيةُ وهي تقتدي بهم تتنافَسُ على المكارم، لا المغَارم، وعلى التسراحم، لا التخاصم، وعلى الإيثار، لا الأثَرَة، وعلى إعلاءِ كلمةِ الله التي يُنْصَفُ بها مظلومٌ، ويُؤخَذُ بها ظالمٌ، وتُحفَظُ بها الحقوقُ، وتُؤدَّى الواجبات.

من هنا يُعلَم أن منهج الأنبياء - وهم يدعون إلى الله - ليس بمعزَل عن شئون الحياة، بل هو الحياة في أكمل صورها وأبرِّ معانيها.. هو الإيمان بالخالق، والبرُّ بالمخلوق، ويخطئ مَن يظنُّ أنَّ منهجَ الأنبياء يُمكنُ أن يُستَغْنَى عنه في هداية الناسِ إلى الحقِّ، وقيامِهم بالقسط.

وسيظلُّ موكبُ الإنسانيةِ موصولاً بالخير ما اتبع الناسُ منهجَهم، محكوماً عليه

(١) الملك : ١٤.

(٢) رواه مسلم.

بالشقاء إذا خالفوا هُداهم، أو أعرضوا عنـــهم ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (١)

لذا كان لابُدَّ من المعرفة والهداية، معرفةِ منهجِ الرُّسُل، والاقتداء بهُداهم، والحذرِ من مخالفتهم أو الإعراض عنهم.

والدُّعاةَ إلى الله – خاصَّة – عليهم أن يتدبَّروا منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، وأن تكون لهم فيهم أُسوة حسنة؛ حتى يستطيعوا أن يُبلِّغـــوا رســـالةَ الله في حكمـــةٍ ورُشد، ومصابرةٍ وصدق.

فمَعَ الرُّسُلِ الكرام؛ لنرَى حقيقةَ منهجهم، وما دَعُوا إليه، وما استدلُّوا به؛ حتى نسلكَ سبيلَهم على معرفةٍ وبيِّنةٍ وبصيرةٍ، ونظفرَ بالتبصرة والذِّكرى، راجينَ من الله أن يحشرنا في زُمرتهم، وأن يرزقنا صِدْقَ اتباعهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢)

مُحَمَّد الرَّاوي..

(١) طه : ١٢٣- ١٢٧.

(٢) العنكبوت : ٦٩.